حسان بن ثابت (رضي الله عنه) ودوره في توثيق الشعر الإسلامي

بقلم: الأستاذ المساعد الدكتور محمد بن سمن وشريفة رحمي،
قسم اللغة العربية ولغات الشرق الأوسط،
كلية اللغات واللسانيات بجامعة ملايا، كوالا لومبور ٥٠٦٠٣ ماليزيا

مقدمة

اللغة هي ألفاظ يعبر بها كل قوم عن مقاصدهم وأغراضهم. أما بالنسبة للغة الأدبية، فاللغة نفسها هي الكلمات الجميلة التي تحتوي على الخيال الدقيق، والتصوير اللطيف، التي ورثتها الشعراء والكتاب، يهدف إلى تثقيف الروح، وتأديب الذوق والضمير وتشريع اللغة. وهناك أيضا تعريف اللغة الأدبية أن جميع أشكال النثر والشعر التي ينتجها العقل من شخص ما أن يصف الحرف والعادات والخيال، وتحد من قدرتها على استخدام اللغة التي تهدف إلى تثقيف الروح والعقل وتصويب الفكر واللسان.

في بعض الأحيان يتم استخدام كلمة "الآداب" أيضا يذكر في مناقشة من فروع الفنون العلمية والأدبية التي تولدها كل لغة . وبالتالي فإن كلمة "آداب" يمكن أن تشمل كل ما يتم إنتاجه من قبل العقل من العلماء والكتاب، والشعراء. الأدب العربي هو أغنى الآداب، لأنه الأدب الذي تم إنشاؤه منذ طفولة الإنسان العربي حتى انحطاط الثقافة العربية بعد انتهاء الدولة العربية والإسلامية. ولغة الأدب العربي ليست فقط لغة للأمة العربية، ولكنها أصبحت لغة كل الناس الذين يعتنقون دين الله (الإسلام). لأنهم يبتدعون المعاني والمفاهيم أو المناهج، وكذلك توسيع المعاني بمساعدة أسرار لغتهم. ثم أنهم ينتشرون في الأرض لنشر الدين، والأدب، والثقافة، والعلوم. ثم يتكيفون مع أي لغة، لنشر المعرفة

والحضارة في من سبق من الأمم والشعوب: الإغريق والفرس واليهود، والهنود، والأحباش. ويواجهون العقبات والعوائق لقرون طويلة. وكانوا يشاهدون كفاح لغات حولهم يرث حضارة الأدب والثقافة. وبوجود اختلافات في اللهجات اللغوية المتنوعة، كالخنادق والأنهار المتدفقة، ثم تتفرع، وتتجمع في المحيطة الواحدة، وهي اللغة العربية. وأصبحت اللغة العربية جميلة بالشعر. وحسان بن ثابت أحد الشعراء المؤثرين في عصورهم.

كانت مكانة حسان بن ثابت في مجال الشعر كبيرة ومذهلة. والمواهب الشعرية موروثة من عائلته المشهورة كعائلة الشاعر. وكان حسان ملتحقا بمجال الشعر منذ أيام الجاهلية. عندما اعتنق الإسلام، ثم واصل الكفاح في المجال الشعري، بل أصبح يعرف بالدور الذي لعب وهو دور كبير وصعب. ثم عينه الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليكون واحدا من كبار شعرائه. لعب حسان دورا هاما في الكفاح من أجل الدفاع عن نبي الإسلام من هجوم من قبل العدو. كان الشعر كالسلاح. الشعر هو سلاح قوي وفعال للعرب. قد لعب حسان دورا كبيرا في حماية رسالة الإسلام من خلال قصائده. كان يحترمه الأصدقاء ويخشى أعداء الإسلام منه. فقصائده مثيرة جدا للاهتمام بدراستها، التي تحتوي على العديد من الخصائص الجمالية والروعة الفنية. كما نرى أنها من حيث اللغة تحتوي على عناصر رئيسة للبلاغة العربية، مثل: التشبيه، والكناية، والمبالغة والاستعارة. ولعظمته في مجال الشعر يعترف بالشاعر الكبير في أوائل صدر الإسلام.

إن الإسلام منذ بداية عهده أثر في الشعر والشعراء، فالإسلام يعتبر بداية عصر أدبي جديد، وأن هذا الشعر نسجته خيوط هذه الحياة الجديدة بكل

ما اكتنفها من مؤثرات، وما عمل فيها من عوامل التطور والتوجيه. والصور التي بدت فيها ملامح الشعر الإسلامي، والإطار الذي وضع فيه، والألوان التي صبغته.

١. عصر صدر الإسلام

تحدد هذا العصر منذ بدايته بظهور الدعوة الإسلامية وانتشارها وتوحيد القبائل العربية المتنافرة تباعا في بوتقة العقيدة الدينية الجديدة. وتحت لوائها وقد كان لمبعث النبي العربي في حجاز في أوائل القرن السابع الميلادي (٦١٠ م) ونزول القرآن وسيطرة الإسلام. وانتشاره في الجزيرة العربية كلها. وقيام العرب بالفتوحات الواسعة، أبعد الأثر وأعماقه في مجرى الحياة العربية وتطورها. فكان ذلك خاتمة للعصر الجاهلى وفاتحة لعصر جديد في تاريخ الأدب العربي.[١]

وتدل كلمة الإسلام في المفهوم اللغوي على الخضوع والانقياد، كما جاء في القرآن الكريم على معناه: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا". فالإسلام هو الشريعة الإلهية الأخيرة التي تفرض سلطانها على كل ما سبقها من شرائع سماوية، ويقوم على ركنين، هما: العقيدة والعمل.

أ- تعريف الأدب الإسلامي

هو التعبير الفني الهادف عن موقع الحياة والكون والإنسان على وجدان الأدب تعبيرا ينبع من التصور الإسلامي للخالق عز وجل ومخلوقاته، وأيضا هو الفن المصور للشخصية الإنسانية من خلال الكلمة المؤثرة.

---

[١] شوقي ضيف، العصر الجاهلي. ص ٤.

والأدب الإسلامي هو ومضة التفاعل بين الفكر والعاطفة في فطرة الإنسان مع حادثة أو أحداث، حين تدفع الموهبة الأدبية هذه الومضة موضوعا فنيا ينطلق على أسلوب التعبير باللغة، ممتدا في أغوار النفس الإنسانية، والحياة، والكون، والدنيا، والآخرة، مع عناصره الفنية التي يهب كل منها الأسلوب قدرا من الجمال الفني، ليشارك الأدب الأمة في تحقيق أهدافها الإيمانية الثابتة والمرحلية، وليساهم في عمارة الأرض، وبناء حضارة إيمانية ظاهرة، وحياة إنسانية نظيفة، وهو يخضع في ذلك كله لمنهاج الله الحق المتكامل قرآنا وسنة.

ب- الشعر في عصر صدر الإسلام

هناك أراء تقول إن الشعر في عصر صدر الإسلام انحسر عن أثر ضئيل نحيل، لأنهم كانوا منشغلين بأمور دينهم والجهاد في سبيل الله ويحاربون الروم والفرس لنشر دين الله، وأكثر ممن يشترك في مجال الشعر يغيب إما يموت أو يضاحي بسبب الحرب.[٢] وهذا الرأي خطأ، لأن الله قد أتم على هؤلاء الشعراء نعمة الإسلام وانتظم كثير من الأشعار للدفاع عن الإسلام ولأجل مجاهدة في سبيل الله وهم يستلهمون الإسلام ويعيشون له، ويموتون به، ويعتمدون على القرآن والحديث، وكلامهم كلام الحكمة والدين.[٣] وكما عرفنا أن مجال الشعر والشعراء في العصر الجاهلي غير مشهور وأكثر منهم لا يقدر في إبداع الشعر ويتذوقون فيه. وهم يهتمون كثيرا في مجال التجارة ويحملون ويبيعون بضائعهم صيفا وشتاءا كما ذكر في كتاب الله في سورة القريش.[٤]

---

[٢] محمد بن سلام الجماهي. طبقات فحول الشعراء. ص: ٢٢.

[٣] حسين عتوان. مقدمة القصيدة العربية في صدر الإسلام. ص: ٩.

[٤] شوقي ضيف. العصر الإسلامي. ص: ٤٧.

وفيه أشعار كثيرة، نلقاها في كل ما يصادفنا من أحداث، فليس هناك حدث كبير إلا ويواكبه الشعر ويرافقه، وكان أكبر الأحداث دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى الإسلام، وهي دعوة اضطرته إلى حمل السيف للذود عنها، وانقسم العرب بإزائها مؤمنين ومشركين، فكان هناك من آمنوا وحسن إيمانهم ومن وقفوا يدافعون عن الدين القديم ويصدون عن سبيل الله، وكل ذلك نجده ماثلا على ألسنة الشعراء. واستقام أمر الإسلام في الجزيرة، غير أن أقواما ارتدوا في عهد أبي بكر، فحاربهم ومثل الشعر هذه الحرب، ثم كانت الفتوح، فانطلق العرب يحملون مشاعل الإسلام إلى العالم وهم ينشدون أناشيد الجهاد. وفتنة عثمان وحروب علي وطلحة والزبير وعائشة من جهة، وحروب علي ومعاوية من جهة ثانية، فعلت أصوات الشعراء وتصايحوا بأشعارهم في كل مكان.

ينظمون الشعر في هذا العصر اللامع بالأحداث، بل مع أنفسهم وقبائلهم مستضيئين إلى حد كبير بالإسلام وهديه الكريم. فالشعر لم يتوقف ولم يتخلف في هذا العصر وهذا أمر طبيعي، لأنهم عاشوا قبل الإسلام وعبر لسانهم بالشعر عن عواطفهم ومشاعرهم. حتى أتم الله عليهم نعمة الإسلام ظلوا يصطنعونه وينظمونه. فشأن الشعر في عهد صدر الإسلام ارتفع ارتفاعا ملحوظاا بل كان الشعر في خصائص إنتاجه في هذا العهد أرقى أجمل من قبل.[٥]

انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا. وقد وقف بجانب الرسول (صلى الله

[٥] حسين عتوان. مقدمة القصيدة العربية في صدر الإسلام. ص:٩.

عليه وسلم) ثلاثة من شعراء المدينة ينافحون عنه ويردون على شعراء مكة وغيرهم من خصومه ذائدين مدافعين، وهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة. وحتى في العامين الأخيرين من حياته عامى الوفود كان كل وفد يقدم ومعه خطباؤه وشعراؤه، وبمجرد أن يمثلوا بين يديه يتحدث خطباؤهم وينشد شعراؤهم ويردّ عليهم خطباء الرسول (صلى الله عليه وسلم) وشعراؤه.

وربما جاءت شبهة إصغار العرب للشعر في صدر الإسلام وإعراضهم عنه من مهاجمة القرآن للشعراء في قوله تعالى: "والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا" وواضح أن القرآن يهاجم شعراء المشركين الذين كانوا يهجون الرسول ويثبطون عن دعوته. فالقرآن لم يهاجم الشعر من حيث هو شعر، وإنما هاجم شعرا بعينه كان يؤذي الله ورسوله، وهو نفسه الذى قال فيه الرسول الكريم:" لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا" أما بعد ذلك فإن الرسول كان يعجب بالشعر ويقول حين يسمع بعض روائعه: "إن البيان لسحرًا وإن من الشعر لحكما أو حكمة".كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه يقدرون ويتذوقون الشعر. كثير من الأحداث تشهد تلك الأحوال. لقد استمع الرسول (صلى الله عليه وسلم) شعر قرات بن هبيرات. ثم مدح الرسول بشعره وكذلك كعب بن زهير حينما يمدح الرسول.[٦] ثم حينما طلب رسول (صلى الله عليه وسلم) من حسان بن ثابت ليساعده في إرهاب الكافرين والمشركين بجودة شعره. عن البراء رضي الله عنه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال:

[٦] أبو علي، الحسن بن رشيق القيرواني. العمدة. ج: ١. ص: ٢٤.

"اهجهم أو هاجهم وجبريل معك". وفي حديث آخر نفس المقصود، عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم قريظة لحسان بن ثابت: اهج المشركين فإن الجبريل معك.[٧]

وكل ذلك معناه أن الإسلام لم يُثَبِّط عن الشعر إلا حين وقف معارضا لدعوته، أما بعد ذلك فقد كان يرتضيه ويستحسنه.

جـ – الشعر في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم)

إن هذا العصر عصر مهم جدا في تاريخ حضارة الإسلام والأدب لأن هذا العصر تغير من كل جانب في مجال أدب العرب مقارنة من العصر الجاهلي وهذا من أثر الإسلام والقرآن الكريم.[٨] إن شعراء القبائل ظلوا ينظمون شعرهم بالصورة الجاهلية إلى أن دخلوا الإسلام، وكان الموت قد سبق إلى كثير منهم، فماتوا قبل إسلامهم وحرى بهؤلاء أن يدخلوا في غمار الجاهلية، ومعروف أن قريشا حادّت الله ورسوله حين بعث مما اضطره إلى الهجرة من مكة إلى المدينة، ويقف الرسول ومن هاجروا معه من مكة ومن التفوا في جانب وبمجرد السيوف أخذ الشعراء في الجانبين المتناقضين يسلون ألسنتهم، ولم تكن مكة في الجاهلية تعرف بشعر إلا بعض مقطوعات تنسب لورقة ابن نوفل وغيره من المتحنفين، ومقطوعات أخرى تنسب لبعض فتياها مثل نبية ومسافر اللذين ترجم لهما أبو الفرج في أغانيه. فلما نشبت الحرب بينها وبين الرسول لمعت فيها أسماء شعراء كثيرين مثل أبي سفيان وعبدالله بن الزبعري وضرار بن الخطاب وأبي عزة وهبيرة بن أبي وهب. وقد أخذوا يسددون سهام أشعارهم

[٧] العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري. ج: ١٠. ص: ٦٦٩.

[٨] محمد عبد المنعم الخفاجي، الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام. ص: ٣٣٠.

إلى الرسول وأصحابه من المهاجرين والأنصار من المدينة. وعز ذلك عليه لا لأنهم كانوا يهجونه فحسب، بل أيضا لأنهم كانوا يصددون عن سبيل الله بما يذيع من شعرهم في القبائل العربية، فقال للأنصار:" ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟ فقال حسان بن ثابت: أنا لها، وأخذ بطرف لسانه، وقال: "والله مايسرني به مفول بين بصرى وصنعاء " وانضم إليه كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، فاحتدم الهجاء بينهم وبين شعراء مكة.

وكان في الطرف المقابل حسان وكعب وابن رواحة، وحسان أشعر الثلاثة وهو كثير الشعر جيده، ويقال إن أول ما جرى به لسانه حين سله على قريش هذه الأبيات يتحدى بها أبو سفيان بن الحارث:

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجَزَاءُ
فإن أبي ووالده وعِرْضِي لِعرْضِ محمدِ منكم وِقَاءُ
أَتهجوه ولستَ لـه بكفْءٍ فشَرُّكما لخيركما الفِدَاءُ

د- الشعر في عصر الخلفاء الراشدين

أصبح العروبة والإسلام شيئاً واحدا، وهذا هو السر في نشوء نظام الولاء حين فتحت البلاد الأجنبية، فإنه كان حتما على من يسلم أن يلتحق بقبيلة عربية ويصبح كأنه فرد من أفرادها.

ولم يكد يتسلم أبو بكر الصديق مقاليد الخلافة حتى طغت على الجزيرة موجة حادة من الردة، إذ امتنع كثير من العرب عن أداء الزكاة على شاهم وبعيرهم، فاستشار الصديق كبار الصحابة فيما يصنع، فكلهم قالوا : إنه لا طاقة لنا يقال

العرب جميعا، ثم يستعد ويوجه الجيوش بقيادة خالد بن الوليد وغيره.[٩] وقتل حينئذ مالك بن نويرة بنى يربوع، ولأخيه متمم فيه مراث رائعة. واتجه خالد بجيوشه نحو بني حنيفة في اليمامة ومتنبئها مسيلمة، فالتقى بها في "عقربة" ونشبت بين الطرفين معارك حادة استحر فيها القتال، غير أن الدوائر لم تلبث أن دارت على بني حنيفة، فسقط متنبئها في ميدان المعارك. وأعلنت استسلامها. وكان ذلك نصرا مؤزرا لدين الله، وسرعان ما دانت"البحرين" بالطاعة، واتجهت أسراب من هذه الجيوش إلى حضرموت ونجران واليمن، حيث التف الناس هناك حول متنبي يسمى الأسود العنسى ومتنبى آخر يسمى قيس بن عبد يغوث، و لم تلبث كل هذه الأنحاء أن استسلمت.

وإذا كانت معركة الشرك لعهد الرسول قد خلفت ملحمة كبيرة فإن معركة الردة هي الأخرى قد حلفت أشعارا كثيرة، بعضها كان إنذارا وتخويفا ووعظا من مثل قول الحارث بن مرة في وعظه لبني عامر:

بني عامرٍ إن تَنْصُرُوا الله تُنْصَرُوا وإن تَنْصبوا لله والدين تُخْذَلُوا
وإن تُهْزَموا لايُنْجكمْ منه مهربٌ وإن تثبتوا للقوم والله تُقْتَلُوا

هـ– أغراض الشعر في صدر الإسلام

١. الهجاء ، قول عبد الله بن رواحة في هجاء المشركين :

شهدتُ بأَن وعد الله حَقٌّ وأَن النار مَثْوَى الكافرينا[١٠]

٢. الإعتذار. قول ابن الزبعريّ يعتذر فيها للرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما دخل في دين الله:

[٩] أبو زيد محمد بن أبو الخطاب القرشي، جمهرات العشر العرب، ص: ٣٠.
[١٠] ديوان حسان بن ثابت الأنصاري

يا رسول المليك إنَّ لساني واتقٌ مافتقتُ إذ أَنابُور
إذ أجارى الشيطان في سَنَنِ الغَ ي ومن مال مَيْلَهُ مَثْبُورُ
آمن اللحمُ والعظامُ بما قُلْ تَ فنفسي الفِدَا وأنت النَّذِيْرُ

٣. الفخر، يقول الشاعر يفخر فخرا جديدا، فخرا إسلاميا فيه ربه ومـــا أنعم به عليهم من نعم، يقول:

كتب الرحمن والحمد له سعَةَ الأَخلاق فينا والضَّلَعْ
وإباءً للدنيَّاتِ إذا أُعْطِيَ المكثورُ ضَيْمًا فكَنَع
وبناءً للمعالى إنما يرفع اللهُ ومن شَاءَ وَضَع
نعم لله فينا رَبَّها وصنيعُ اللهِ ، واللهُ صَنَع

٤. الرثاء، قال ابي سفيان بن الحارث في رثاء قيس بن عاصم:

عليك سلامُ الله قيسَ بنْ عاصمٍ ورحمته ماشاء أَن يترحَّما
فلم يكُ قيسٌ هُلْكُهُ هلكَ واحدٍ ولكنه بنيانُ قوم تهدَّما

٥. الوصف، قال الشاعر لوصف القوس وحمار الوحش، ومما يشتمل بـــه من شعره:

ليس بما ليس به بأْسٌ باسْ ولا يَضُرُّ البَرَّ ما قال الناسْ

٦. المدح، قول حسان بن ثابت يمدح بها الغساسنة:

بيضُ الوجوه كريمةٌ أَحسابهم شُمُّ الأَنوف من الطراز الأَوَّلِ

هذا من أغراض الشعر في عصر صدر الإسلام وما زاد على ذلك[11] من الشعراء في صدر الإسلام، منهم حسان بن ثابت،كعب بن زهير، لبيد، الحطيئة، النابغة الجعدي وغير هم من الشعراء الآخرين.

٢. حياة حسان بن ثابت قبل الإسلام

هو أبو الوليد حسان بن ثابت من قبيلة الخزرج التي هاجرت من اليمن إلى الحجاز وأقامت في المدينة مع الأوس.[١٢] أنه ولد حوالى سنة ٥٩٠ م. ولد في المدينة قبل مولد محمد بنحو ثماني سنين، عاش في الجاهلية ستين سنة، وفي الإسلام ستين أخرى. شب في بيت وجاهة وشرف منصرفا إلى اللهو والشرب والغزل. فأبوه ثابت بن النذر بن حرام الخزرجي، من سادة قومه وأشرافهم. وأمه "الفريعة" خزرجية مثل أبيه. وحسان ليس خزرجيا فحسب بل هو أيضا من بني النجار أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فله به صلة وقرابة.[١٣]

وكانت المدينة في الجاهلية ميدانا للتراع بين الأوس والخزرج، تكثر فيها الخصومات والحروب، وكان قيس بن الحطيم شاعر الأوس. وهو شاعر الخزرج الذي كان لسان قومه في تلك الحروب التي نشبت بينهم وبين الأوس في الجاهلية، فطارت في البلاد العربية شهرة واسعة.

وقد اتصل حسان بالغساسنة، يمدحهم بشعره، ويتقاسم هو والنابغة الذبياني وعلقمة الفحل أعطيات بني غسان. فقد طابت له الحياة في ظل تلك

---

[11] Osman Khalid, Kesusasteraan Arab Zaman Permulaan Islam, ms 173

[١٢] أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، ج: ٢، ص: ١٤٣.

[١٣] نفس المراجع

النعمة الوارف ظلالها. ثم اتصل ببلاط الحيرة وعليها النعمان بن المنذر، فحل محل النابغة، حين كان هذا الأخير في خلاف مع النعمان، إلى أن عاد النابغة إلى ظل أبي قابوس النعمان، فتركه حسان مكرها، وقد أفاد من احتكاكه بالملوك معرفة بالشعر الدحي وأساليبه، ومعرفة بالشعر الهجائي ومذاهبه. ولقد كان أداؤه الفني في شعره يتميز بالتضخيم والتعظيم، واشتمل على ألفاظ جزلة قوية.

وهكذا كان في تمام الأهبة للانتقال إلى ظل محمد (صلى الله عليه وسلم) نبي الإسلام، والمناضلة دونه بسلاحي مدحه وهجائه.

٣. حياته في الإسلام

لما بلغ حسان بن ثابت من عمره، هاجر إلى مدينة المصطفى (صلى الله عليه وسلم)، فدخل في الإسلام. وراح من فوره يرد هجمات القرشيين اللسانية، ويدافع عن محمد والإسلام، ويهجو خصومهما. قال (صلى الله عليه وسلم) يوما للأنصار:

"ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟" فقال حسان بن ثابت: أنا لها، وأخذ بطرف لسانه، وقال (عليه السلام):" والله ما يسرني به مقول بين بصرى وصنعاء". ولم يكن حسان وحده هو الذي يرد غائلة المشركين من الشعراء، بل كان يقف إلى جانبه عدد كبير من الشعراء الذين صح اسلامهم. وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يثني على شعر حسان، وكان يحثه على ذلك ويدعو له بمثل:"اللهم أيده بروح القدس" عطف عليه، وقربه منه، وقسم له من الغنائم والعطايا.[١٤] إلا أن حسان لم يكن يهجو قريشا بالكفر وعبادة الأوثان، إنما كان يهجوهم

[١٤] الأصفهاني، الأغاني، ج ٤، ص ١٤٤.

بالأيام التى هزموا فيها ويعيرهم بالمثالب والأنساب. ولو هجاهم بالكفر والشرك ما بلغ منهم مبلغا. كان حسان لايقوى قلبه على الحرب، فاكتفى بالشعر، و لم ينصر محمدا بسيفه، و لم يشهد معركة مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولا غزوة.

مما لا شك فيه أن حسان كان يحظي بمنزلة رفيعة، يجله الخلفاء الراشدون ويفرضون له في العطاء. في نفس الوقت، فإننا لا نجد في خلافة أبي بكر موقفا خاصا من الشعر، ويبدو أن انشغاله بالفتوحات وحركة الردة لم تدع له وقتا يفرغ فيه لتوجيه الشعراء أو الاستماع إليهم. في حين نجد أن عمر يحب الشعر، خاصة ما لم يكن فيه تكرار للفظ والمعنى. وقد روي عن كل من الخليفتين الراشدين عددا من الأبيات، ولكننا لسنا في صدد إيرادها.

٤. آثار ه

ذهب عبد المنعم الخفاجي وصلاح الدين محمد عبد التواب، أن حسان بن ثابت أحد االمؤشرات التى أعطى الله على محمد صلى الله عليه وسلم في نشر الدعوة الإسلامية. ويدور دورا مهما لمساعدة الرسول بأشعاره.[١٥] ومن شعره يرد على هجاء العدو ويبين أن الإسلام دين الحق، يتصور من أبيات شعره:

شق له من اسمه كي يجله فدو العرش محمود وهذا محمد
نبي أتانا بعد يأس وفترة من الرسل والأوثان في الأرض تبعد
فأمسى سراجا مستنيرا وهاديا يلوح كما لاح الصقيل المهند
وأنذرنا نارا وبشرنا جنة وعلمنا الإسلام فالله نحمد
تعاليت رب الناس عن قول من دعى سواك إلها أنت أعلى وأمجد

[١٥] محمد عبد المنعم الخفاجي، صلاح الدين محمد عبد التواب، الحياة الأدبية في عصري الجاهلية وصدر الإسلام، ص ٣٢٣-٣٢٤.

لك الخلق والنعماء والأمر كله فإياك نستهدي وإياك نعبد[١٦]

اتفق الرواة والنقاد على أن حسان أشعر أهل المدر في عصره، وأشعر اليمن قاطبة. وقد خلف ديوانا ضخما رواه ابن حبيب، غير أن كثيرا من الشعر المصنوع دخله، لأنه لما كان لحسان موقف خاص من الوجهة السياسية والدينية، دس عليه كثير من الشعر المنحول، قام بهذا العمل أعداء الإسلام، كما قام به بعض كتاب السيرة من مثل ابن اسحاق.

٥. أغراض شعره

أكثر شعر حسان بن ثابت في الهجاء، أما تبقى في الافتخار بالأنصار، ومدح محمد (صلى الله عليه وسلم) والغساسنة والنعمان وغيرهم من سادات العرب وأشرافهم. ووصف مجالس اللهو والخمر مع شيئ من الغزل، إلا أنه منذ إسلامه التزم بمبادئ الإسلام.

ومن خلال حسان بن ثابت نجد أن الشعر الإسلامي اكتسب رقة في التعبير بعد أن عمر حسان قلوب الشعراء، وهي شديدة التأثير بالقرآن الكريم والحديث مع وجود الألفاظ البدوية الصحراوية. ومهما استقلت أبيات حسان بأفكار وموضوعات خاصة فإن كلا منها يعبر عن موضوع واحد، هو موضوع الدعوة التي أحدثت أكبر تغيير فكري في حياة الناس وأسلوب معاشهم.[١٧] وسنقسم شخصية حسان الشعرية إلى أربعة أقسام، هي:

---

[١٦] ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، ص ٩٢.

[١٧] محمد عبد المنعم الخفاجي، صلاح الدين محمد عبد التواب، الحياة الأدبية في عصري الجاهلية وصدر الإسلام، ص ٣٢٣-٣٢٤.

١. حسان شاعر القبلية: قبل أن يدخل حسان في الإسلام، كان منصرفا إلى الذود عن حياض قومه بالمفاخرة، فكان شعر النضال القبلي تغلب عليه صبغة الفخر. أما الداعي إلى ذلك فالعداء الذي كان ناشبا بين قبيلته والوس. ولقد كان فخر حسان لنفحة عالية، واندفاعا شديدا.

٢. حسان شاعر التكسب: اتصل حسان بالبلاط الغساني، فمدح كثيرا من أمراء غسان أشهرهم عمرو الرابع بن الحارث، وأخوه النعمان، ولا سيما جبلة بن الأيهم. وقد قرب الغساسنة الشاعر وأكرموه وأغدقوا عليه العطايا، وجعلوا له مرتبا سنويا وكان هو يستدر ذلك العطاء بشعره:

يسقون من ورد الريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول

٣. حسان شاعر الإسلام : نصب حسان نفسه للدفاع عن الدين الإسلامي، والرد على أنصار الجاهلية، وقد نشبت بين الفريقين معارك لسانية حامية، فكان الشعر شعر النضال يهجي فيه الأعداء، ويمدح فيه رجال الفريق، و لم يكن المدح ولا الهجاء للتكسب أو الاستجداء، بل للدفاع عن الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم). وهذا بنقسم إلى قسمين:

أ. أما المدح الذي نجده في شعر حسان لهذا العهد مقصور على النبي وخلفائه وكبار الصحابة، والذين ابلوا في الدفاع عن الإسلام بلاء حسنا. وهو يختلف عن المدح التكسبي بصدوفه عن التقلب على معاني العطاء والجود، والإنطواء

على وصف الخصال الحميدة ورسالة محمد وما إلى ذلك مما ينبثق من العاطفة الحقة والعقدة النفسية، قال حسان:

نبي أتانا بعد يأس وفترة من الرسل والأوثان في الرض تعبد
فأمسي سراجا مستنيرا وهاديا يلوح كما لاح الصقيل المهند
وأنذرنا نارا وبشر جنة وعلمنا الإسلام ، فالله نحمد
وأنت إله الخلق ربي وخالقي بذلك ما عمرت في الناس أشهد[١٨]

ويلحق بهذا المدح رثاء محمد، فقد ضمنه الشاعر لوعة وذرف دموعا حارة، وتذكرا لأفضال رسول الدين الجديد، وحنيا للقائد في النعيم:

مع المصطفى أرجو بذاك جواره وفي نيل ذلك اليوم أسعى وأجهد

ب. وأما الهجاء النضالي: فقد وجهه الى القرشيين الذين قاموا في وجه الدين الجديد يحاربونه ويهجون محمدا. وكان موقف الشاعر تجاههم حربا لما بينهم وبين محمد من نسب. أما أسلوبه في هجائه فقد كان يعمد إلى الواحد منهم فيفصله عن الدوحة القرشية، ويجعله فيهم طائرا غريبا يلجأ إليها كعبد، ثم يذكر نسبه لأمه فيطعن به طعنا شنيعا، ثم يسدد سهامه في أخلاق الرجل وعرضه فيمزقها تمزيقا في إقذاع شديد، ويخرج ذلك الرجل موطنا للجهل والبخل والجبن، والفرار عن إنقاذ الأحبة من وهدة الموت في المعارك. قال حسان هاجبا بنى سهم بن عمرو:

والله ما في قريش كلها نفر أكثر شيخا جبانا فاحشا غمرا
هذر مشائيم محروم ثويهم إذا تروح منهم زود القمرا
لولا النبي، وقول الحق مغضبة لما تركت لكم أنثى ولا ذكرا

ويقول في مقطوعة يعير قريشا فيها بهزيمتها يوم بدر:

[١٨] ديوان حسان بن ثابت الأنصاري

فينا الرسول وفينا الحق نتبعه حتى الممات ونصر غير محدود
مستعصمين بحبل غير منجزم مستحكم من حبال الله ممدود[١٩]

من جانب آخر، فإننا نبعد عن حسان ما اتهمه الرواة به، وعلينا ألا نقبل من شعره إلا ما يغلب عليه الإقذاع بالأيام والأنساب.

٤. حسان شاعر اللهو: كان حسان متوفرا على شرب الخمر والاستمتاع بالغناء وما يتبعه من لهو وعبث، ولاسيما قبل دخوله الإسلام. وله في الخمر أوصاف شهيرة تأتي خصوصا في مدائحه لملوك غسان، كما له غزل، وشعره هذا غير مستقل يختلط عادة بالفخر والمدح. وغزله تقليدي في معانيه وصوره.

٦. القيمة الفنية لشعره

شعر حسان بن ثابت طبع مندفع، وقريحة هائجة. ومن جوانب قيمة شعره:

١. القيمة الفنية: حسان شاعر شديد التأثير، قوي العاطفة، يفوته التأني، ولهذا ترى شعره يتدفع تدفعا، متتبعا في ذلك الطبع والفطرة لا الصنعة والتعمل. ومن ثم تلقي شعره خاليا من كل ما يتطلب النظر الهادئ المتفحص، فمطالعه مقتضبة اقتضابا شديدا، يسرع في الانتقال منها إلى موضوعه الذي تحتدم به نفسه، وانتقاله غير بارع عادة. ثم إن كلامه يخلو من الترتيب والتساوق لما في عاطفته في فوران. وإننا نلمس في كلام حسان أثرا للدين الجديد وللقرآن، وذلك ظاهر في المعاني الجديدة من ارتياح إلى المصير، وتفصيل بعض العقائد والشعائر من

[١٩] ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، ص ١٠.

توحيد وتنـــزيه وثواب وعقاب، وذلك ظاهر أيضا في الألفاظ الـــتى أعطاها الإسلام إيحاء جديدا، ونثرها حسان في شعره. ولقد حق بعد ذلك أن يقال أن حسان بن ثابت هو مؤســـس الشـــعر الـــديني في الإسلام.

٢. القيمة التاريخية لشعر حسان، فضلا عن القيمة الفنية هناك قيمة تاريخية كبرى لشعره، فهو مصدر من مصادر تاريخ تلك الأيام، يسجل مآتي الغساسنة ويصف غزواتهم وممتلكاتهم، ويســـجل أحـــداث الفجـــر الإسلامي، ويطلعنا على أخبار محمد في غاراته وغزواته وفتح مكـــة، كما يطلعنا على أسماء الصحابة وأعداء الإسلام. وهكذا كان حسان شاعرا ومؤرخا كما كان شعره فاتحة للشعر السياسي الذي ازدهر في عهد بني أمية.

٧. نماذج من شعره

حسان يمدح الغساسنة بمثل قوله:

بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول

ومقطوعته الدالية التي يستهلها بقوله:

وإن سنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

ويقول أيضا في دفاعه عن النبي صلى الله عليه وسلم:

إن كان في الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم لايطمعون ولايزري بهم طمع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

لا يفخرون إذا نالوا عدوهم وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع

ومن رثائه

المرثية البديعة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) التي رواها أبو زيد الأنصاري، فيقول:

ما بال عينك لاتنام كأنما كحلت مآقيها بكل الأرمد

جزعا على المهدي أصبح ثاويا يا خير من وطئ الثر: لا تبعد

جنبي يقيك الترب لهفي ليتني غيبت قبلك في بقيع الغردق

ورثاؤه لعمر حين توفي على إثر طعنة فيورز أبو لؤلؤ المجوسي:

وفجعنا فيروز لا در دره بأبيض يتلو المحكمات منيب[٢٠]

إن من يتعمق في ديوان حسان بن ثابت، يجد أن فحلولة شعره لم تفارقه في جاهليته وإسلامه، وفي فخامته وعذوبته، ولا شك في أن ما يظهر من ضعف ولين في بعض إسلامياته ليس أصيلا في فنه وإنما هو عارض، ساقته ظروف طارئة، أو منحول دس عليه لغرض ديني أو فكاهي. فلقد كان حسان رمزا من رموز المدافعين عن حياض الإسلام والمسلمين، فلقد سخر هجاءه في ذم أعداء النبي (عليه الصلاة والسلام)، ولقد مضى مفتخرا بالنبي (صلى الله عليه وسلم) وأتباعه المؤمنين، وإخوانه الأنصار.

خاتمة

مما لاريب فيه أن شعراء القبائل ظلوا ينظمون شعرهم بالصورة الجاهلية إلى أن دخلوا في الإسلام، وكان الموت قد سبق إلى كثيرين منهم، فماتوا قبل إسلامهم وحرى بهؤلاء أن يدخلوا في غمار الجاهليين. والشعر والشعراء في عصر صدر

[٢٠] ديوان حسان بن ثابت الأنصاري.

الإسلام صورة من صور حياتهم اليومية، للدفع الإسلام وانتشار الدعوة الإسلامية ويستدلون بالقرآن والسنة.

والأدب الإسلامي يصدر عن حياة إسلامية، وتجربة إسلامية، إنه أدب يتسم بالصدق، والوضوح، والالتزام بالإسلام في أوسع صوره، وأبعد مراميه، لأنه يصدر عن التصور الإسلامي المرتبط ارتباطا عضويا بالسلوك والنشاط الإنساني والعلاقات الإنسانية المختلفة، وكل أعمال الإنسان، كارتباطه بالعقيدة ذاتها، إنه يصور تجربة الإنسان المسلم في الحياة.

المراجع

- شوقي ضيف .١٩٧٤. *تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي*. مصر: دار المعارف.
- البغدادي، عبد القادر بن عمر .١٩٧٩. *خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب*. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- كارول بروكلمان .١٩٩٣. *(ترجمة) تاريخ الأدب العربي محمود فهمي حجازي*. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- سعيد حسين منصور .١٩٨١. *حركة الحياة بين الجاهلية والإسلام*.كويت: دار القلم.
- سليمان حسن ربيع .١٩٧٧. *في الأدب الإسلامي والأموي*. مصر: دار السعادة.
- محمد حسن بريغش .١٩٩٦. *الأدب الإسلامي أصوله وسماته*. بيروت: مؤسسة الرسالة.
- مصطفى الشكعة .١٩٧٣. *الأدب في موكب الحضارة الإسلامية*. بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- حنا الفاخوري .بدون تاريخ. *تاريخ الأدب العربي*. مصر: دار المعارف.
- محمود علي مكي .بدون تاريخ. *المدائح النبوية*. بيروت: مكتبة لبنان.
- عمر الطيب الساسي .بدون تاريخ. *دراسات في الأدب العربي*. جدة: دار الشروق.
- زكريا بن صيام. ١٩٩٥. *الأدب العربي في العصر الجاهلي وصدر الإسلام*. عمان: مكتبة الرسالة.
- بطروس البستاني. ١٩٦٨. *أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام*. بيروت: دار المكشوف ودار الثقافة.
- شوقي ضيف. ١٩٩٥. *تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي*. القاهرة: دار المعارف.
- حسين عتوان. ١٩٨٧. *مقدمة القصيدة العربية في صدر الإسلام*. بيروت: دار الجيل.
- العسقلاني. ١٩٨٩. *فتح الباري شرح صحيح البخاري*. بيروت: دار الكتب العلمية.
- *ديوان حسان بن ثابت الأنصاري*. ١٩٨٣. بيروت: دار البيروت.